

الفصل الثالث

الظروف التي ساعدت العرب في فتح العراق وفارس

تقدم أن جزيرة العرب من الناحية الجغرافية تشمل كل ما يلي الفرات الأدنى غرباً ؛ ومعنى هذا أنه لا يوجد فاصل طبيعي بين الإحساء ونجد والحجاز من جانب وبين العراق من الجانب الآخر وأحدث ما شهدنا من عدم قيام حاجز بين هاتين الجبهتين ما تعانيه الدول العربية اليوم في تعيين الحدود بين المملكة العربية السعودية والكويت والعراق ، وبين المملكة العربية السعودية ومملكة شرق الأردن .

وحدث في مارس سنة ١٩٤٨ أن شركة انجليزية كشفت عن آبار بترول ، وأنها توقفت عن العمل حتى يقرر العرب فيما بينهم ما إذا كانت الآبار الجديدة تقع في حدود المملكة العربية السعودية أو في حدود الكويت أو في حدود العراق . ذلك أن الطبيعة إذ ضنت بحاجز من عملها لم يبق إلا الإعتماد على الخبراء بهذه النواحي وبأماكن الماء فيها وبالقبائل الضاربة بها .

وانعدام الحواجز واختلاط القبائل هو الذي سبب قيام النزاع بين البدو الخاضعين لأبي بكر بزعامة هانيء بن حارثة الشيباني وبين البدو الخاضعين للأكاسرة . وبنشوب الخلاف بين هذه القبائل المختلفة التبعية اتهم أبو بكر الفرصة اغزو العراق للأسباب الجغرافية والاجتماعية التي سيأتي شرحها ، ولأن

دولة الفرس يومذاك كانت تعاني اضطرابات كثيرة يكفي للدلالة عليها أن شيرويه بن كسرى الثانى قتل أباه وقتل ١٨ من إخوته ، وأنه لم يبق على العرش بعد ذلك إلا أشهراً ؛ وأنه فى مدى أربع سنين جلس على عرش الأ كاسرة تسعة كانوا يتنازعون ، بالسيف والخنجر والدسائس ، بقية دولة منهوكة القوى مما أشاع الفوضى فى إدارة بلاد فارس .

والعوامل الجغرافية فى فتح العراق كثيرة نكتفى منها بأن العرب حين شرعوا فى فتحه لم يخرجوا عن بيئتهم الطبيعية ، بل وجدوا أنفسهم فى بلاد صحراوية ، لا نقول تشبه بلادهم فحسب ، بل هى جزء متمم لها . ثم وجدوا أنفسهم بين أناس يشاطرونهم الجنس واللغة والتقاليد والعادات ، وقد أصبحوا — منذ شئت الفرس دولة المنادرة — يحقدون على الأ كاسرة أنهم حكموا فى رقابهم ولاة من الفرس يجهلون لغتهم وتقاليدهم . وزاد هذا الحقد بما حدث يوم ذى قار سنة ٦١٣م أى بعد أن أوحى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بنحو عامين .

وقد استغل قواد العرب هذه الظروف الجغرافية فكاتوا يعتصمون بالصحراء ويفتحون القرى التى على حافتها مسندين ظهرهم إلى الصحراء دائماً حتى إذا حز بهم الأمر رجعوا إلى المدينة وجعلوا بينهم وبين عدوهم تلك الفياقى التى يضل فيها غير العرب .

وكان أهم غرض من حروب خالد بن الوليد فى العراق إمتلاك الحيرة ، وأول من أقام بهذا المكان أناس يسمون العباد إنضم إليهم — على أثر تصدع بعض سدود اليمن — جماعة من قبيلة تنوخ واشترك هؤلاء وأولئك فى بناء

معقل اتخذوه معسكراً — والمعقل والمعسكر حوله الخندق يسمى بالسريانية « حرتا » — وبنى العباد حول الحصن فنشأت الخيرة على شاطئ الفرات إذ ذاك ، بل كانت تتخللها فروع منه أهمها فرع يخرج من الفرات في قناة محفورة في الصخر حفرها الإنسان في زمن غير معروف . وكان هذا الفرع يغذى بحر النجف ويدور في قوس طويلة حتى يعود إلى الفرات عند القرنة ، وهي ملتقاه مع دجلة . وكان يوجد غربها فرع آخر يسمى خندق سابور حفر لصد غارات البدو . وكان هذا الخندق ينتهي امتداده قرب الأبلة ، وهو اليوم خندق جاف ، أما أيام الفتح العربي فكان غديراً . وكانت تحيط بالخيرة المزارع النضرة والبساتين المثمرة ممتدة إلى أرض النجف .

وكان الجزء المهم من الخيرة على الشاطئ الغربي من نهر الفرات في حدود البادية على ثلاثة أميال جنوبي الموضع الذي بنيت فيه الكوفة فيما بعد . وآثار الخيرة الآن ترى إلى الجنوب الشرقي من مشهد على بالنجف . وبهذا كانت الخيرة أيام ازدهارها بمثابة ثغر على هامش الصحراء تؤمها القوافل من الإحساء ونجد واليمن والحجاز والشام وفارس . ولعظم أهميتها في توطيد سلطان العرب بتلك الناحية ، مع إمكان التقهقر منها دون خسارة ، أقام بها خالد سنة بعد فتحها كي يطمئن على استتباب سلطان المسلمين في كل ما يلي الفرات الأدنى إلى الغرب .

ومن مميزات موقف العرب في فتح العراق — وفي فتح الشام كذلك — أنهم كانوا أحراراً في توجيه ضربات إلى الفرس — أو إلى الروم — وفي نقل جنودهم بين الشام والعراق ، في حين كان الفرس والروم لا يدرون أين

ومتى توجه إليهم هذه الضربات . ثم هم عاجزون عن تعقب العرب في هذا الموقع المتوسط بحسبكم أنه صحراء لا علم لهم بمسالكها وأموائها ، ولا طاقة لهم بالتوغل فيها بجيوش كبيرة .

وهذا يشبه من بعض الوجوه موقف ألمانيا في الحربين العالميتين اللتين قامت أولاهما سنة ١٩١٤ وقامت ثانيتهما سنة ١٩٣٩ إذ كانت ألمانيا بفضل موقعها الداخلي بين أعدائها من الشرق والغرب تستطيع اختيار نقط الهجوم ، وتنقل جيوشها بين الجبهتين الغربية والشرقية دون أن يعلم أعداؤها شيئاً يذكر عن وقت الهجوم أو مكانه ، وعن الطرق التي تسلكها جنودها في الانتقال من جبهة إلى أخرى .

فلما استقر الأمر للعرب في الحيرة نظروا إلى الشمال فوجدوا البادية قد لطف مناخها واكتست في الربيع بالنبات والأزهار فتقدموا يفتحونها حتى بلغوا الفراض . فلما خرج خالد إلى الشام واتفق الفرس مؤقتاً على تمليك « بوران » ساقت على العرب جيشين فاضطر المثنى بن حارثة الشيباني أن يخلى الحيرة . وقبل أن يفارق الحياة نصح خلفه على جيش العراق وهو سعد بن مالك المشهور بسعد بن أبي وقاص ألا يقاتل الفرس إذا استجمع أمرهم في عقر دارهم بل يقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حجر من أرض العرب ؛ فإن انتصر لم يصعب عليه التقدم ، وإن كانت الأخرى بقي على اتصال بجزيرة العرب ، وكان أعلم بسبيل بلاده .

ووافق هذا رأى عمر فكتب إلى جيوشه : « أخرجوا من بين ظهري الأعاجم ، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم » .

فانتشر الجند على حافة الصحراء من ذى قار جنوباً ؛ فكانوا مسلحاً ينظر بعضهم إلى بعض ، ويغيث بعضها بعضاً . وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ١٣ هجرية .

ثم حضر سعد إلى القادسية ، وكانت يومذاك يحف بها من ناحية الشرق خور من الفرات ، ويطيف بها من ناحية الغرب خندق سابور وهو إذ ذاك غدير . وكان يحمى ميمنة المساميين مستنقع لا يمكن اجتيازه بجيش كبير كجيش الفرس ، بينما كانت الصحراء تحمى ظهرهم .

والقادسية من أبواب فارس وهو منزل رغب خصيب رحيب يكون فيه العرب على حافات الحجر وحافات المدر . وبفضل هذا الموقع انتصر العرب فى القادسية انتصاراً مكن لهم من اجتياز الفرات والتغلغل إلى دجلة . واكتفى الفرس مؤقتاً بالخروج من القسم الغربى من المدائن ، والإنتقال إلى جزئها الشرقى متخذين من دجلة فاصلاً بينهم وبين أعدائهم . وعبر سعد عن ذلك بقوله : « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ، ويخلصون إليكم إذا شاءوا فى سفنهم وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه . ألا إني قد عنزمت على قطع هذا البحر إليهم » . فعبر العرب دجلة ، واستولوا على بقية المدائن ، وبسطوا نفوذهم على السهل الواقع إلى الشرق من دجلة حتى بلغوا سفوح الجبال التى تفصل سهل العراق عن هضبة إيران .

ولهذه الجبال أسماء كثيرة منها جبال زاغروس وجبال خوزستان وجبال فارس وجبال حميرين . وبلوغ هذه السفوح اعتقد عمر أنها فاصل طبيعى يصح للمسلمين الوقوف عنده ، علماً منه بأن الفرس سيدافعون عن بلادهم الأصلية

دفاع المستميت باعتبار كونها عقر دارهم ومنبت دولتهم وموطن آثارهم . ولأن العرب لم يألوا حرب الجبال بعد . وعبر عمر عن هذا الرأي بقوله : « وددت لو أن بيننا وبين العجم سداً ، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد . إني آثرت سلامة المسلمين على الانتقال والغنائم » .

هذا ما رغب فيه عمر واعتزمه ، ولكن العوامل الجغرافية أقوى من عمر إرادة ، وأبعد من عزمه أثراً : ذلك بأن الفرس — منذ انسحبوا داخل هضبتهم — أدركوا انعكاس الوضع الجغرافي بينهم وبين العرب إذ هيأت لهم الطبيعة طرفاً ينحدرون فيها من جبالهم إلى السهل : تلك الطرق هي وديان الأنهار الكثيرة التي تنبع من جبال خوزستان وتصب في دجلة وشط العرب وخليج فارس . وأهم هذه الأنهار نهر زاب الأعلى ونهر زاب الأسفل ونهر ديالة ونهر قارون الذي كان العرب يسمونه دجيلا ومعنى هذا أن الفرس أصبحوا يستطيعون أن ينقضوا من جبالهم في أي هذه الوديان شاءوا ، دون أن يكون في طاقة العرب التمكن بمعرفة مكان الهجوم أو زمانه .

ولما كان وادي ديالة هو الجادة الكبرى إلى الهضبة رابط الفرس فيه عند حصن منيع هو جولاء ، التي تسمى اليوم قز لرباط على طريق القوافل بين العراق وكرمنشاة التي حلت محل حلوان بعد ضعفها . وجولاء ، بفضل هذا الموقع أقوى أبواب إيران من الوجهة الاستراتيجية (وهي الآن على الحدود بين إيران والعراق) . ومن أجل هذا حشد الفرس فيها جيوشهم وجعلوا ينقضون على العرب حتى أدرك هؤلاء أن الاحتفاظ بالسهل يقتضيهم انتزاع جولاء من أعدائهم . بذلك قضت تضاريس الأرض وجاء

قضاؤها فوق قضاء عمر ومعقباً عليه . واضطر العرب أن يحاصروا جلولا حتى استولوا عليها .

فوقف لهم الفرس مرة أخرى في قلب الجبال وأشدّها وعورة في موقع منيع هو نهاوند . ولا تعجب أن يسمى العرب انتصارهم في نهاوند فتح الفتوح إذ أن توغّلهم بعد ذلك في بلاد الفرس كان سهلاً نسبياً — مع بقائه خاضعاً للعوامل الجغرافية .

وبيان ذلك أن الجزء الأكبر من وسط هضبة إيران صحارى ملحّة لا يسهل السير فيها بجيوش كبيرة وأهم هذه الصحارى دشت اللوت ودشت الكافر إلا أنه يوجد بين دشت الكافر وجبال البرز المغطاة بالغابات نطاق من نوع المراعى الباردة — الإستبس — تتخلله على مسافات مناسبة واحات غنية تسقيها عيون من الماء العذب الغزير . وفي هذا النطاق يمتد الطريق الجيد الوحيد بين شرق آسيا وغربها . وعلى هذا الطريق سارت الجيوش العربية حتى نهر جيحون فعبّرتّه واستولت على بخارى وسمرقند وتابعت سيرها إلى حدود الصين .

أما الجزء الشمالى من تركستان فإن برده القارس حال دون توغّل العرب فيه إذ أن البرد القارس أشدّ أعدائهم . ووقوف البرد الشديد فى وجه الفتوح العربية على هذه الصورة مما يبرهن على رسوخ العوامل الجغرافية وعلى مبلغ أثرها فى توجيه التاريخ . ومثل ذلك ما ينقل عن نابليون أنه قال : « إن برد روسيا وحر سوريا هما العدوان اللذان عجّزت عن قهرهما » والقول الآخر بأن

الروس لم يهزموا فابليون في عامي ١٨١٢ - ١٨١٣ و إنما هزمه القائد « ينير » .
ومن باب أولى لم يستطع العرب التوغل في هضبة تبت التي تكسوها
الثلوج أكثر أيام السنة ، ولا في جبال هملايا .

وما قيل عن انقضاض الفرس على العرب بطريق وادي دباله ينطبق بوجه
عام على وادي نهر قارون . ولذلك تحصن الهرمزان بالجبال وجعل ينقض بين
حين وآخر على ناحية الأبله حتى لم يبق مناص — لأجل الاحتفاظ بالسواد —
من أن يترك عمر رأيه وينصاع لأمر الطبيعة فيأذن عتبة بن غزوان ، عامله على
الأبله ، أن يغزو الأهواز كي يتم بالاستيلاء عليها فتح فارس .

وبعد أن استقر العرب في إيران أقام جماعة منهم بالمداين ، فلما عادت
وفودهم إلى المدينة انزعج عمر حين شاهد شحوب ألوانهم وضعف أجسامهم
فسأل عن السبب فأجابوه بأن هواء المداين لا يوافق أمرجتهم فأمرهم باختيار
مكان تصلح فيه الإبل . وشرط عليهم أن يكون للمكان المختار ماء صالح
وأن يكون بحيث يمكن انجاده من المدينة أو التقهقر منه إليها إذا حذب
الأمر ، وعلى هذا الأساس اختير موضع البصرة وكان مما لوحظ في اختياره
مواجهة وادي قارون وهو طريق هجوم الفرس في الجنوب ، وموضع الكوفة
وكان مما لوحظ فيه مواجهته لوادي دباله وهو طريق هجوم الفرس في الشمال .
ومثل ذلك يقال عن إختيار موضع الفسطاط وكلها ينطبق عليها ، إلى جانب
الشروط الأخرى قول عمر : « لا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى شئت أن
آتيكم ركبت ناقتي فآتيكم » . أما في الشام فلم تدع الحاجة لإنشاء عاصمة
جديدة لأن شروط عمر متوافرة في موقع دمشق .